هوامش

قد يكون متحف مراسم الدفن الشهير في فيينا فريداً من نوعه حول العالم، لكنه يكتسب أهمية خاصة في زمن تفشي فيروس كورونا وارتفاع أعداد ضحاياه

اقنعة الموت الخاصة ببتهوفن وهايدن وموزار وشوبرت في المتحف في فيينا (Getty)

متحف لمراسم الدفن

النظر إلى الموت في زمن كورونا

لم تُثن جائحة كوفيد 19 سكان فيينا عن زيارة متحف مخصص بالكامل لمراسم دفن الموتى، مواجهين فكرة الموت وجهاً لوجه، ومن دون تورية، وبشيء من الفكاهة.

يقع المتحف في الطبقة السفلى من مستودع الجثث الرئيسي في العاصمة النمساوية، وكان الأول في العالم الذي يعرض، اعتباراً من عام 1967، مجموعة نعوش وأكفان تعيد رسم تطوّر ثقافة الحداد.

ولاحظ جاك كورتن من فيينا، وهو رجل سبعيني من أصل أميركي، أن «كثراً يخشون الموت، لكنه كالضرائب، لا يمكن التهرّب منه». جاء كورتن مع حبيبته لزيارة المتحف الذي تبلغ مساحته 300 متر مربع، وراحا يجولان في قاعاته في ظل إنارة خافتة، معتبرَين أن فكرة مكان كهذا «ممتازة».

كان السياح من دول بعيدة جداً، كاليابان وكندا وسواهما، يزورون المتحف قبل الجائحة، ولكن مع تدابير احتواء فيروس كورونا وإقفال الحدود، سيكون النمساويون الزوار الوحيدين في عيد جميع القديسين مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر.

تفكير بطرف الدفن

يستضيف المتحف في الوقت الراهن معرضاً موقتاً يثير اهتمام الجمهور، يقام في ذكرى مرور 250 عاماً على ولادة بيتهوفن المدفون في مكان قريب. لا يستعيد المعرض مراحل حياة المؤلف الموسيقي الألماني، لكنه يكشف قناع الموت الخاص به، ويصف بدقة العذاب الذي سببه له المرض. والأمر نفسه ينطبق على المؤلف الموسيقي جوزف هايدن الذي سرق طلاب طبّ جمجمته عام 1809، وقد دُفِنَت بعد نحو قرن ونصف قرن.

ولاحظت الشابة جوليا فورتزل أن «فيينا معروفة جيداً بجانبها المتعلق الموت». يرقد في المدافن الرئيسية نحو ثلاثة ملايين شخص، وهو رقم قياسي في أوروبا، في حين أن عدد سكان فيينا الأحياء لا يتعدى المليونين. ولم تحل جائحة كوفيد-19 دون فتح المتحف الممول من البلدية أبوابه، بل على العكس، هو يقترح أكثر من أي وقت مضى النظر إلى الموت على أنه جزء من الحياة. وقالت مسؤولة العلاقات العامة في المتحف سارة هيرهاكر «أعتقد أن الوباء جعل الناس يفكرون أكثر فأكثر في الطريقة التي يرغبون في أن يُدفَنوا بها».

باختصار

أول متحف في العالم يعرض، اعتباراً من عام 1967، مجموعة نعوش وأكفان تعيد رسم تطوّر ثقافة الحداد.

■■■

يستضيف المتحف في الوقت الراهن معرضاً موقتاً يثير اهتمام الجمهور، يقام في ذكرى مرور 250 عاماً على ولادة بيتهوفن.

■■■

في فيينا، حيث ولدت نظرية «غريزة الموت» على يد سيغموند فرويد، بات الإقبال يتزايد على النعوش القابلة للتحلل البيولوجي.

«ألعاب الموت» بقطع «ليغو»

في فيينا، حيث ولدت نظرية «غريزة الموت» على يد سيغموند فرويد، بات الإقبال يتزايد على النعوش القابلة للتحلل البيولوجي. وإذا كانت التقاليد الإمبراطورية النمساوية تحرص على تحويل الدفن إلى مناسبة استعراضية لإظهار السلطة والنفوذ، فإن إقامة «مأتم ناجح» لا تزال تُعتَبَر أمراً مهماً في عاصمة أباطرة أسرة هابسبورغ. ليس التهرّب من موضوع الموت مستحباً، حتى مع الأولاد.

وتتوافر في متجر المتحف تشكيلة واسعة من «مستلزمات» دفن الموتى مصنوعة من قطع «ليغو»، ومنها مثلاً النعش ومحرقة الجثث والهيكل العظمي، و«ألعاب الموت» هذه غير موجودة في أي مكان آخر. ورأت المعالجة النفسية ميكاييلا توميك أن «من المهم جداً التحدث بوضوح وشفافية إلى الأولاد أياً كان عمرهم عن موضوع الموت، ولو بكلمات تتناسب مع سنهم، لأن شعور الإنسان بأنه وحده في مواجهة الموت يولّد الخوف والصدمات».

ولدى النمساويين اقتناع بالمنافع التربوية لهذه الألعاب، وهم يقبلون بكثافة على شرائها ولا يجدون في ذلك أي جانب كئيب.

الفكاهة السوداء

كذلك يتهافت النمساويون على شراء كمامات قماشية كتب عليها المتحف البارع في «الفكاهة السوداء» عبارة «المشككون في كورونا يحررون وظائف». وأشارت هيرهاكر إلى أن المتحف طبع من هذه الكمامات ثلاثة آلاف لكنّ الطلب بلغ سبعة آلاف، فيما كانت امرأة أنيقة تغادر المتجر خائبة لأنها لم تجد واحدة تشتريها. وسأل زائر آخر هل ستعيد المدينة «ترامواي النعوش» إلى الخدمة، وهو قطار لجمع لجثث الموتى سيّرته المدينة في ذروة وباء «الحمى الإسبانية» عام 1918. وبعد قرن من هذه الواقعة، لا يزال خط النقل المشترك 71 على سكّته، ومنه استوحيت عبارة «أخُذُ الخط 71»، وهي تعني الموت.

(فرانس برس)

وأخيراً

دينيس أسعد... شهرزاد الحكاية العربية

محمود الرحبي

تميزت الحكّاءة الفلسطينية دينيس أسعد، التي من تسمياتها كذلك أمّ الفرح، بابتكار أسلوبها الخاص في رواية الحكايات الشعبية الموجَّهة إلى الأطفال والناشئة، معتمدةً على ذاكرتها الوقادة التي تخزن العشرات منها، وتلقيها بسلاسة، وبروح تستحضر الأساليب القديمة في عرض المرويات بعتباتٍ تشويقية؛ إذ تبدأ رواية حكاياتها بعتبة دخول «كان يا ما كان»، وتنهيها بعتبة خروج «وحكايتي حكيتها، وبقلوبكم خبيتها، إن شا الله تحبوها، زي ما أنا حبيتها».

جالت دينيس مختلف ربوع الوطن العربي، بملابسها الفلسطينية الزاهية ذات النقوش الكنعانية، وبلكنتها الحيفاوية وبطبعها الأمومي الدافئ، مسكونةً بعشق مهنة «الحكواتي» الضاربة في القِدم، والتي توشك على الانقراض بفعل هجوم وسائل التسلية الحديثة، واستئثار تطبيقاتها وبرمجياتها باهتمام الصغار والكبار معا. تواصل دينيس النبش في ذاكرتنا العربية، لتستخرج منها مروياتٍ لمستمعيها الصغار؛ حيث تجيد دينيس مسرحةَ هذه الحكايات واستعادة عوالمها، بموهبتها الفطرية وتمرّسها، على امتداد سنوات، في دروب الحكي، إلى أن صارت قادرةً، بسلاسةٍ وبراعةٍ واضحتيْن، على تذويب ملفوظاتها في قالبٍ من المرح والتلقائية والبساطة... وإلى دورها الحكواتي المتميز، تدير دينيس أوراشا للحكايات الشعبية، مثل ورشة مهمة أقامتها قبل عشر سنوات في إيطاليا، عنوانها «فن الحكي كوسيلة للتواصل» شاركت فيها مجموعات من خمس دول أوروبية وفلسطين.

التقيتُ دينيس في مسقط، وأجريت حديثا معها. أتذكّر مما قالته إن إسرائيل تُقرصن حكايات عربية كثيرة، وخصوصا من العراق والمغرب وسورية وتنسبها لثقافتها، كما أنها تتمنّى أن تتمكّن من تدريس الرقص الصوفي للأطفال، وذلك في مواجهة المد الأصولي الذي يجتاح العالم. لأن دينيس تمسرح حكاياتها بالرقص والأداء الحركي، من أجل إيصال المعنى الهادف لكل حكاية، في ما يشبه استرجاعا، بقالبٍ عصري، لأسلوب الحكواتيين الذي لم تعد له ميادين حية في العالم العربي، إلا في ما ندر (مثل ساحة جامع الفنا في مراكش)، حيث إنها وثّقت قرابة مائتي حكاية فلسطينية وعربية. وقد اعتادت السّفر بأخيلة مستمعيها من البراعم عبر الأزمنة، قاطفةً من تراثنا اللامادي الثري، والعابق بكل صنوف القصص والملاحم، باقاتٍ مختارةً من المرويات المتميزة. كانت دينيس كثيرة الأسفار عبر الأماكن أيضا. وهكذا، يمكنك أن تلقاها في بيروت أو تونس أو الرباط، وفي كل مدينةٍ تحتضن مهرجاناً للطفولة والحكاية الشعبية. وهي في خضمّ ذلك، تحمل معها موروثنا الشفهي العربي من ذخائر الحكايات الشعبية التي تركها أسلافنا منثورةً في هواء الذاكرة، كما أنها تحيي طرقا في أداء التراث الشفاهي، لم يعد لها من سبيلٍ في ظل عالم مادي متسارع، ناهيك عن مضمرات رسالتها الإنسانية التي يمكن تسطيرها تحت عنوان الرد بالحكاية في مماثلة الرد بالكتابة، رسالة تخفي، بين طياتها، دليلا على كم الحكايات العربية التي نسبها الإسرائيليون إلى أنفسهم.

> كاريزما أمومية تلقائية، دوماً ضاحكة وسعيدة سعادةً تضاهي ما تسع الأرض من التفاؤل والأمل والاستبشار

دينيس أسعد حالة فريدة في الحياة، بكاريزما أمومية تلقائية، فهي دوماً ضاحكة وسعيدة سعادةً تضاهي ما تسع الأرض من التفاؤل والأمل والاستبشار. حين تجالسها تشعر بأنك أمام مزيج من الطفولة والأمومة، تجسّد في امرأة واحدة متفرّدة. تجيد الحكي باندفاع آسر، وتعشقه عشقا يلامس حدود الهوس. تجد الأطفال متحلقين حولها مشدوهين، مُصغين بصمت وتركيز إلى الكلمات تنساب من بين شفتيها بعفوية عجيبة. وتعتبر دينيس الحكاية أفضل وسيلة لإقامة جسر تواصل بين الشعوب العربية، بمختلف فئاتها وعناصرها وتقليص الفجوة القائمة بين الثقافات والأجيال، في ظل ما بات العالم يشهده من تفكّك وصراعات وتناحُرات، بل ترى أن الحكاية قادرة على تشجيع المطالعة في عالمنا العربي. والحقّ أن دينيس تمثل بذلك مدرسةً قائمة الذات.

استطاعت أن تحافظ على مشروعها، على الرغم من كل الظروف، من قبيل إعالتها ابنها «من ذوي الاحتياجات الخاصة» أمير الذي تسميه أميري. وثّقت حكاياتٍ في طريقها إلى المحو، مدفوعة، في ذلك، بحكايات طفولتها الفلسطينية التي تستنطق، في بنياتها العميقة، الصوت الصادق للأرض السليبة.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**